## الثابت الثانى

# إسلاميّة العراق فى الفتح الإسلامى

تلك هى سمة العراق حين بدأ المسلمون فتوحهم. حيث إن التخطيط لفتح العراق بدأ فى السنة السادسة للهجرة حينما بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - كتابًا إلى كسرى أبرويز ملك الفرس يدعوه فيه إلى الإسلام، حمله إليه عبدالله بن أبى حذافة السهمى - رضى الله عنه - فمزق كسرى كتاب الرسول ﷺ وبعث إلى عامله فى اليمن أن ابعث إلىَّ بهذا الرجل الذى فى الحجاز أو برأسه. وحين علم الرسول ﷺ بأمره قال: **"مزّق الله ملكه"** وما لبث أبرويز إلا أيامًا حتى ثار عليه ولده شيرويه واغتصب ملكه(١).

وفى العام الثانى عشر للهجرة جهز الخليفة أبو بكر - رضى الله عنه - جيشًا بقيادة خالد بن الوليد لفتح العراق، وتم له فتح "الحيرة" التى كان سكانها عرباً، وبينهم وبين بقيَّة أهل العراق رابطة دم وتعاطف، وتجمعهم لغة واحدة ودم واحد.

**الفتح الإسلامى ومراحله:**

وحينما تطلب الموقف السوقى تدعيم جيش فتوح الشام كتب أبو بكر يأمر خالدًا، الذى كان يعمل فى فتح العراق وتحريره من الهيمنة الساسانية، بالتوجه

(١) راجع: العراق فى التاريخ، ص ٢٦٢. مرجع سابق.

بمعظم جيشه إلى الشام على أن يترك حامية يستخلف على إمرتها المثنى بن حارثة الشيبانى فى العراق.

وفى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بعث حملة جديدة بقيادة سعد بن أبى وقاص لتجديد الجهاد ضد الهيمنة الفارسية فى عهد يزدجرد. سار الجيش الإسلامى ونزل بسهول القادسية جوار المكان الذى شيدت فيه الكوفة، وجرت معركة القادسية التى انتصر فيها المسلمون وقتل فيها رستم أحد مشاهير قادة الفرس، وقد تم ذلك فى العام الخامس عشر للهجرة (١).

وفى عام (١٦هـ) أسس عتبة بن غزوان مدينة البصرة بأمر من الخليفة عمر على الضفة الغربيّة من شط العرب على بعد حوالى (١٧) كم من الخليج.

اجتاز سعد بن أبى وقاص نهر الفرات واستولى على المدائن التى لا تزال بعض آثارها قائمة حتى الآن. متمثلة بـ" طاق إيوان كسرى " الضخم، ثم توجه الجيش الإسلامى شمالاً قاصداً جلولاء وتكريت والموصل.

وفى عام (١٧هـ) شيد سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة فاستقر فى هاتين المدينتين (البصرة والكوفة) كثير من القبائل العربية، وأصبحتا فى أواخر عهد الخلفاء الراشدين وفى العهد الأموى من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، التقت فيهما الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى ببقايا الحضارة الزائلة، كما ازدهرت فيهما التجارة بين الشرق والغرب.

---

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير، والكامل لابن الأثير، والعراق فى التاريخ، ص ٣١٥.

**إبقاء أرض السواد بأيدى أهلها:**

يحدثنا التاريخ أن معارضة قوية جوبه بها سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- حينما رفض تقسيم أراضى السواد بالعراق على الغانمين، مفضلاً بقاء الأرض بأيدى أصحابها الأولين قائلاً: (ألا وإنّ قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا وإن ابن الخطاب حىٌّ فلا، إنى قائم دون شعب الحرَّة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار).

وفى عهد عثمان - رضى الله عنه - اقتنى رهط من الصحابة الدور والضياع، واستقر فى العراق ما يزيد على ثلاثمائة من الصحابة - رضوان الله عليهم - فى مقدمتهم عبدالله بن مسعود الذى كان له أعمق الأثر فى بناء قواعد مدرسة العراق الفقهية. وهكذا أصبح العراق جزءًا من الدولة الإسلامية الكبرى تعلو فيه كلمة الله وتطبق على أرضه شريعة الله، لم يجزأ، ولم يقسم، ولم تبعثر أرضه بين الغانمين.

كما تحول إلى قاعدة إسلاميّة متقدمة للفتوح المتوجهة إلى نواحى الشرق المختلفة، ومنها يجرى إعداد الجيوش الإسلامية ومدها بالمقاتلة والمؤن. كما أصبحت الكوفة والبصرة مقرين أساسيين ومتقدمين للقيادة العسكرية الإسلامية فى جبهة الشرق. فأمير البصرة يدير المناطق الجنوبية من العراق مضافًا إليها الأحواز وفارس وكرمان وسجستان ومكران وخراسان. وأمير الكوفة يتناول سلطانه إضافة إلى أواسط العراق وشماليه الأقاليم الشمالية من الهضبة الإيرانية بما فيها همدان وقزوين والرى وأصفهان[1]، ثم انتقلت السلطة إلى والى "خراسان" بعد ذلك.

---

(١) راجع الهامش رقم (١) ص(٢٠، ٢١)، وكذلك كتاب العراق فى التاريخ، ص ٣٢٣، وكتاب محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، مبحث اجتهادات عمر.

## الكوفة عاصمة الإمام علي:

وحينما بويع أمير المؤمنين الإمام علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - بالخلافة واضطر لمغادرة المدينة اتجهت الأنظار إلى البصرة حيث بدأت بوادر تشير إلى قرب وقوع أول معركة داخلية أو حرب أهلية يخوضها المسلمون ضد مسلمين مثلهم فى الدين واللغة والهدف والتاريخ، تلك التى عُرفت بمعركة "الجمل" التى ذهب ضحيتها عشرة آلاف من الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين. ولم تقتصر آثارها - فى معظم تقديرات المؤرخين - على ذلك، بل تركت من الآثار الفكرية والفقهية والاجتماعية والانقسامات التى لا تزال الأمة تعانى منها حتى اليوم الشىء الكثير(١).

ثم اتجهت الأنظار مرة أخرى إلى الكوفة حينما اتخذها أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب - كرم الله وجهه - مقرًا له وعاصمة، واستمرت كذلك إلى أن استشهد فيها وبايع مبايعوه لولده الحسن -رضى الله عنه- الذى قضى الله سبحانه وتعالى به على الفتنة حيث تنازل بعد ستة أشهر من توليه الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان على شروط أفاض المؤرخون بذكرها، وكان أهمها أن يعود أمر الأمة إليها بعد معاوية، فليس لمعاوية بمقتضى ذلك الاتفاق أن يوصى بالخلافة لأحد، أو يفرض على الأمة اختياره، بل يعود أمر الأمة "شورى" إليها. ومن هنا فقد كانت تولية يزيد نقضًا لذلك الاتفاق، وانقلابًا على بنوده.

---

(١) معركة الجمل: سميت بمعركة الجمل نسبة إلى الجمل الذى كانت أم المؤمنين عائشة تركبه حين التقى الجمعان (جمع على أمير المؤمنين وأتباعه، وجمع عائشة الذى رفع شعار المطالبة بدم عثمان). لمزيد من التفاصيل راجع: السيرة النبوية لابن كثير وابن هشام، والبداية والنهاية، وتاريخ الطبرى، والكامل لابن الأثير.

وكان تنازل الحسن - رضى الله عنه - عملية جمع شمل للمسلمين وإعادة توحيد للأمة بعد الفرقة والفتنة، وكان ذلك من أعلام النبوة ودلائلها، فقد صحّ قول الرسول ﷺ فيه: **"إنّ ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**[1]".

يعد تاريخ ذلك التنازل النهاية الحقيقية للخلافة الراشدة، وبقطع النظر عن اختلاف الآراء والمذاهب فى حكم وحكمة هذا التنازل وآثاره فإنّ يوم وقوعه قد اعتبر البداية الحقيقية لقيام الدولة الأموية، كما اعتبر بداية لتحول الحكم والسلطان والإدارة المباشرة إلى الشام، حيث يقيم خلفاء بنى أمية وأعوانهم.

إنّ العراق لم يعد إقليمًا كسائر الأقاليم التى دخلت الإسلام فتحًا أو صلحًا بل صار محضنًا للإسلام لا يختلف عن المدينة أو مكة فى الإنتاج الفكرى، والتفاعل مع الإسلام، بل صار مصدرًا من مصادر إثراء وتأسيس الفكر الإسلامى بكل أنواعه: الفلسفى والكلامى والفقهى والتفسيرى والحديثى واللّغوى بكل فروعه. وإذا كان "التشيُّع" قد نشأ فى المدينة فقد تبلور فى العراق. أما المذاهب السنيَّة الأربعة المتبوعة فإن ثلاثة منها قد نشأت وتبلورت وأخذت أبعادها فى العراق. وإذا كان الإمام الرابع مالك لم يعش فى العراق فإنّ العراق قد احتضن مدرسة مالكية كان لها أثر بالغ فى بلورة المذهب وإثرائه، وإنماء الفقه الخلافى أو المقارن فيه[2].

---

(١) الحديث رقم (٢٧٠٤) فى صحيح البخارى، كتاب الصلح.

(٢) راجع كتاب: الإمام زيد، للشيخ محمد أبو زهرة، وفيه تفاصيل وافية عن الإمام زيد ومدرسته وبروز التشيع فى المدينة المنورة.

ومن هنا يتضح بشكل لا يقبل الشك أو الإزالة أنّ "إسلام العراق" هو ثابت ثان من الثوابت العراقية لا يمكن التشكيك فيه، ولا التنكر له ولا تجاوزه فضلاً عن نفيه. وهو فى الوقت نفسه إسلام لا يقبل تضييقًا ولا تجزئة ولا تهميشًا، فهو إسلام بالمعنى القرآنى النبوى الشامل للإسلام. فإذا كان هذا الإسلام يتسع لشىء أو يضيق عنه فلا بد من أخذ ذلك بنظر الاعتبار.

واستغلال الدين من بعض الحاكمين أو الفئات والأحزاب لن يجعل العراقيين على استعداد للتنازل عن إسلامهم وإيمانهم بحال من الأحوال. ونبى الإسلام الأول أبو الأنبياء إبراهيم الخليل بدأ دعوته إلى التوحيد فى جنوب العراق، حيث نشأ وترعرع، وتلقى النبوة وبدأ الدعوة إلى التوحيد والإسلام فى مدينة "أور" قرب الناصرية فى جنوب العراق. ومنها انطلق إلى ما عرف بـ "منطقة التجوال الإبراهيمى".

***